كَيْفَ تَرِقُّ قُلُوبُنَا

تأليف الشيخ
محمد المختار الشنقيطي

مكتبة السنة

الطبعة الثانية لمكتبة السنة - القاهرة

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع : ١٥٧٩٣ / ٢٠٠٠
طبع بدار نوبار للطباعة



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب، الحمد لله الذي تطمئن بذكره القلوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعزّ مطلوب وأشرف مرغوب، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، الذي أرسله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى يوم الدين، وعلى جميع من سار على نهجه واتبع سبيله إلى يوم الدين.

إن رقة القلوب وخشوعها وانكسارها لخالقها وبارئها منحة من الرحمن، وعطية من الديّان تستوجب العفو والغفران، وتكون حرزًا مكينًا وحصنًا حصينًا من الغي والعصيان.

ما رقّ قلب لله عزَّ وجلَّ إلا كان صاحبه سابقًا إلى الخيرات، مشمرًا في الطاعات والمرضات.

وما رقّ قلب لله عزَّ وجلَّ وانكسر إلا وجدته أحرص ما يكون على طاعة الله ومحبة الله.. وما ذُكِّر إلا تذكَّر.. وما بُصِّر إلا تبصَّر.

وما دخلت الرقة إلى القلب إلا وجَدتَه مطمئنًا بذكر الله، يلهج لسانه بشكره والثناء عليه سبحانه وتعالى، وما رقَّ لله عزَّ وجلَّ إلا وجدت صاحبه أبعد ما يكون عن معاصي الله عزَّ وجلَّ.

فالقلب الرقيق: قلب ذليل أمام عظمة الله وبطش الله تبارك وتعالى، ما انتزعه داعي الشيطان إلا وانكسر خوفًا وخشية للرحمن سبحانه وتعالى، ولا جاءه داعي الغي والهوى إلا رعدت فرائص ذلك القلب من خشية المليك سبحانه وتعالى.

القلب الرقيق صاحبه صِدِّيق، وأي صِدِّيق.. والقلب الرقيق رفيق ونِعمَ الرفيق.

ولكن مَن الذي يهبُ رقة القلوب وانكسارها؟!

ومَن الذي يتفضل بخشوعها وإنابتها إلى ربها؟!

ومَن الذي إذا شاء قلَّب هذا القلب فأصبح أرق ما يكون بذكر الله عزَّ وجلَّ؟! وأخشع ما يكون لآياته وعظاته؟! مَن هو؟!

إنه الله سبحانه وتعالى لا إله إلا هو ، القلوب بين

إصبعين من أصابعه، يُقَلّبها كيف يشاء..

فتجد العبد أقسى ما يكون قلبًا ولكن يأبى الله إلا رحمته، ويأبى الله إلا حلمه وجوده وكرمه!!

حتى تأتي تلك اللحظة العجيبة التي يتغلغل فيها الإيمان إلى سويداء ذلك القلب بعد أن أذِنَ الله تعالى أن يصطفي ويجتبي صاحب هذا القلب، من ديوان الشقاء إلى ديوان السعادة، ومن أهل القسوة إلى الرقة، بعد أن كان فظًّا جافيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه..

وإذا به يتوجه إلى الله بقلبه وقالبه، وإذا بذلك القلب الذي كان جَريئًا على حدود الله عزَّ وجلَّ وكانت جوارحه تتبعه في تلك الجرأة إذا به في لحظة واحدة يتغير حاله، وتحسن عاقبته ومآله، يتغير لكي يصبح متبصّرًا، يعرف أين يضع الخطوة في مسيره.

أحبتي في الله: إنها النعمة التي ما وُجدت نعمة على الأرض أجلُّ وأعظم منها؛ نعمة رقة القلبِ وإنابته إلى الله تبارك وتعالى!!

وقد أخبر الله عزَّ وجلَّ أنه ما من قلب يُحرمُ هذه النعمة إلا كان صاحبه موعودًا بعذاب الله فقال سبحانه: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٢] عذابٌ ونكال لقلوب قست عن ذكر الله عزَّ وجلَّ!!

ونعيم ورحمة وسعادة، وفوز لقلوب انكسرت وخشعت لله تبارك وتعالى!!

لذلك ما مِن مؤمن صادق إيمانه إلا وهو يتفكّر: كيف السبيل لكي يكون قلبي رقيقًا؟

كيف السبيل لكي أنال هذه النعمة؟

فأكون حبيبًا لله عزَّ وجلّ، وليًّا من أوليائه لا يعرف الراحة والدَّعة والسرور؛ إلا في محبته وطاعته سبحانه وتعالى؛ لأنه يعلم أنه لن يُحرم هذه النعمة إلا حُرِمَ من الخير الشيء الكثير.

ولذلك كم من أخيار تنتابهم بعض المواقف واللحظات يحتاجون فيها إلى ما يرقق قلوبهم!

فالقلوب شأنها عجيب!! وحالها غريب!!

تارة تقبل على الخير وإذا بها أرق ما تكون لله عزَّ وجلَّ وداعي الله!!

حتى لو سُئلت أن تُنفق أموالها جميعًا لمحبة الله لبذلت!!

ولو سئلت أن تبذل النفس في سبيل الله لَضَحَت!

إنها لحظات ينفح الله عزَّ وجلَّ تلك القلوب برحمته.

وهنـاك لحظـات يتمعّر فيهـا المؤمن لله تبـارك وتعـالى.. لحظات القسوة..

فما من إنسان إلا تمر عليه فترة يقسو فيها قلبه، ويتألم فيها فؤاده، حتى يكون أقسى من الحجر والعياذ بالله.

* * *

أسباب لرقة القلوب

وللرقة أسباب، وللقسوة أسباب، ولكن الله تبارك وتعالى تفضّل وتكرّم بالإشارة إلى بيانها في الكتاب، فما رقَّ القلب بسبب أعظم من سبب الإيمان بالله تبارك وتعالى.

ولا عرف عبدٌ ربَّه بأسمائه وصفاته إلا كان قلبه رقيقًا لله عزَّ وجلَّ، وكان وقَّافًا عند حدود الله، لن تأتيه الآية من كتاب الله ويأتيه حديث عن رسول الله ﷺ إلا قال بلسان الحال والمقال: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فما من عبد عرف الله بأسمائه الحسنى وتعرّف على هذا الربّ الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجارُ عليه إلا وجدته إلى الخير سبّاقًا، وعن الشر محجامًا.

فأعظم سبب تلين به القلوب لله تعالى وتنكسر من هيبته هو:

١- المعرفة بالله تبارك وتعالى:

أن يعرف العبد ربه، وما من شيء في هذا الكون إلا ويُذكّره بهذا الرب، يُذكّره الصباح والمساء بذلك الربّ العظيم، وتذكّره النعمة والنقمة بذلك الكريم الحليم، ويذكّره

الخير والشر بمَن له أمر الخير والشر سبحانه وتعالى، فمَن عرف الله رقّ قلبه من خشية الله تبارك وتعالى!

والعكس، فما وجدت قلبًا قاسيًا إلا وجدت صاحبه أجهل العباد بالله عزَّ وجلَّ وأبعدهم عن المعرفة ببطش الله وعذاب الله، وأجهلهم بنعيم الله عزَّ وجلَّ ورحمة الله.

حتى إنك تجد بعض العصاة أقنط ما يكون من رحمة الله، وأيأس ما يكون من روح الله والعياذ بالله! لمكان الجهل بالله، فلما جهل اللهَ جَرُءَ على حدوده، وجَرُءَ على محارمه ولم يعرف إلا ليلاً ونهارًا وفسوقًا وفجورًا، فهذا الذي يعرفه من حياته!! وهذا الذي يُعِدُّه هدفًا في وجوده ومستقبله!!

لذلك فالمعرفة بالله عزَّ وجلَّ طريق لرقة القلوب..

ولذلك كلما وجدت الإنسان يديم العبرة، يديم التفكّر في ملكوت الله، كلما وجدت قلبه فيه رقة!!

وكلما وجدت قلبه فيه خشوع وانكسارٌ إلى الله تبارك وتعالى.

والسبب الثاني الذي يكسر القلوب ويرققها ويعين العبد على رقة قلبه من خشية الله عزَّ وجلَّ:

٢- النظر في آيات هذا الكتاب:

النظر في هذا السبيل المفضي إلى السداد والصواب ..

النظر في كتاب وصفه الله بقوله: ﴿كِتَابٌ أُحكِمَت آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

فما قرأ العبد هذه الآيات وكان عند قراءته حاضر القلب مفكّرًا متأملاً إلا وجدت العين تدمع، والقلب يخشع، والنفس تتوهج إيمانًا من أعماقها تريد المسير إلى الله تبارك وتعالى.

وإذا بأرض ذلك القلب تنقلب بعد آيات القرآن خصبةً طرية للخير، ومحبة لله عزَّ وجلَّ وطاعته.

فما قرأ عبدٌ القرآن ولا استمع لآيات الرحمن إلا وجدته بعد قراءتها والتأمل فيها رقيقًا، قد خفق قلبه واقشعر جلده من خشية الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُم إِلَى ذِكرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

إن هذا القرآن لعجيب!!

بعض الصحابة تليت عليه بعض آيات القرآن فنقلته من الوثنية إلى التوحيد، ومن الشرك بالله إلى عبادة ربّ الأرباب سبحانه وتعالى.

هذا القرآن موعظة ربّ العالمين وكلام إله الأولين والآخرين، فما قرأه عبد إلا تيسرت له الهداية بقراءته، ولذلك قال الله في كتابه: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** [القمر: ١٧].

هل هناك من يريد الذكرى؟!

هل هناك من يريد العظة الكاملة والموعظة السامية؟!

إنه كتابنا.

لذلك ما أدمن قلبٌ ولا أدمن عبدٌ على تلاوة القرآن وجعل القرآن معه إذا لم يكن حافظًا يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، إلا رقّ قلبه من خشية الله تبارك وتعالى.

ومن الأسباب التي تعين على رقة القلب وإنابته إلى الله تعالى:

٣ - تذكّر الآخرة..

أن يتذكّر العبد أنه إلى الله صائر.

وأن يتذكر أن لكل بداية نهاية.

وأنه ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار!

فإذا تذكّر الإنسان أن الحياة زائلة، وأن المتاع فانٍ وأنها غرور زائل دعاه -والله- ذلك إلى أن يحتقر الدنيا ويقبل على ربها إقبال المنيب الصادق، وعندها يرقُّ قلبه.

ومن نظر إلى القبور وإلى أحوال أهلها انكسر قلبه، وذهب من قلبه ما يكون من القسوة ومن الغرور والعياذ بالله، ولذلك لم تجد إنسانًا يحافظ على زيارة القبور مع التفكّر والتأمل والتدبر، إذ يرى فيها الآباء والأمهات، والإخوان والأخوات، والأصحاب والأحباب، والإخوان والخلان، يرى منازلهم ويتذكّر أنه قريبًا سيكون بينهم، وأنهم جيران بعضهم لبعض، قد انقطع التزاور بينهم مع الجيرة، وأنه قد يتدانى القبران وبينهما كما بين السماء والأرض نعيماً وجحيماً.

ما تذكّر عبد هذه المنازل التي ندب النبي ﷺ إلى ذكرها إلا رقّ قلبه من خشية الله تبارك وتعالى.. ولا وقف على شفير قبر فرآه محفورًا فهيّأ نفسه على ماذا يغلق؟! وعلى من يغلق؟! وعلى أي شيء يغلق؟!

أيغلق على مطيع أم على عاصي؟!
أيغلق على نعيم أم على جحيم؟!
فلا إله إلا الله، هو العالم بأحوالهم وهو الحكم العدل الذي يفصل بينهم..
ما نظر عبد هذه النظرات، ولا استجاشت في نفسه هذه التأملات، إلا اهتز القلب من خشية الله، وأنشط هيبة لله تبارك وتعالى، وأقبل إلى الله تعالى إقبال صدق وإخبات.

أسباب لقسوة القلوب

إن أعظم داء يصيب القلب هو داء القسوة والعياذ بالله..
ومن أعظم أسباب القسوة بعد الجهل بالله تبارك وتعالى:
١- الركون إلى الدنيا والغرور بأهلها وكثرة الاشتغال بفضول أحاديثها، فإن هذا من أعظم الأسباب التي تُقسي القلوب والعياذ بالله تبارك وتعالى.
فإذا اشتغل العبد بالأخذ والبيع واشتغل أيضًا بهذه الفتن الزائلة والمحن الحائلة، فسرعان ما يقسو قلبه، لأنه بعيد عن من يذكّره بالله تبارك وتعالى.

فلذلك ينبغي على الإنسان إذا أراد أن يوغل في هذه الدنيا أن يوغل برفق، فديننا ليس دين رهبانية، ولم يحرّم الحلال سبحانه وتعالى، ولم يحل بيننا وبين الطيبات.

ولكن رويدًا رويدًا !!

فأقدار قد سبق بها القلم، وأرزاق قد قضيت، يأخذ الإنسان بأسبابها دون أن يغالب القضاء والقدر، يأخذها برفق ورضى عن الله تبارك وتعالى في يسير يأتيه، وحمد وشكر لبارئه، فسرعان ما توضع له البركة ويُكفَى فتنة القسوة، نسأل الله العافية منها، فلذا من أعظم الأسباب التي تستوجب قسوة القلب الركون إلى الدنيا، وتجدهم -أهل القسوة - غالبًا عندهم عناية بالدنيا، يضحون بكل شيء!!

يضحّون بأوقات الصلوات!!

ويضحّون بارتكاب الفواحش والموبقات!!

ولكن لا تؤخذ هذه الدنيا عليهم!!

فلا يمكن أن يضحي الواحد منهم بدينار أو درهم منها!!

فلذلك دخلت هذه الدنيا إلى القلب، والدنيا شُعَب،

ولو عرف العبد حقيقة هذه الشُّعَب لأصبح وأمسى ولسانه يلهج إلى ربه..

ربِّ نجني من فتنة هذه الدنيا.

فإن في الدنيا شعبًا ما مال القلب إلى واحدٍ منها إلا استهواه لما بعده، ثم إلى ما بعده، حتى يبتعد عن الله عزَّ وجلَّ، وعندها تسقط مكانته عند الله ولا يبالي الله به في أي وادٍ من أودية الدنيا هلك، والعياذ بالله.

إن هذا العبد الذي نسي ربّه وأقبل على هذه الدنيا مُجِلا لها، ومُكرمًا، فعظّم ما لا يستحق التعظيم، واستهان بمَن يستحق الإجلال والتعظيم والتكريم سبحانه وتعالى، فلذلك كانت عاقبته والعياذ بالله من أسوأ العواقب.

ومن أسباب قسوة القلوب، بل ومن أعظم أسباب قسوة القلوب:

٢- الجلوس مع الفُسّاق ومعاشرة من لا خير في معاشرته.

ولذلك ما ألف الإنسانُ صحبةً لا خير في صحبتها إلا قسى قلبه عن ذكر الله تبارك وتعالى..

ولا طَلَبَ الأخيار إلا رققوا قلبه لله الواحد القهار،

ولا حرص على مجالسهم إلا جاءته الرقة شاء أو أبى، جاءت لكي تسكن سويداء قلبه فتخرجه عبدًا صالحًا مُصلحًا، قد جعل الآخرة نصب عينيه.

لذلك ينبغي للإنسان إذا عاشر الأشرار أن يعاشرهم بحذر وأن يكون ذلك على قدر الحاجة حتى يسلم له دينه، فرأس المال في هذه الدنيا هو الدين.

اللهم إنّا نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلى أن تهب لنا قلوبًا ليّنةً، تخشع لذكرك وشكرك.

اللهم إنّا نسألك قلوبًا تطمئن لذكرك..

اللهم إنّا نسألك ألسنة تلهج بشكرك..

اللهم إنّا نسألك إيمانًا كاملاً، ويقينًا صادقًا، وقلبًا خاشعًا، وعلمًا نافعًا، وعملاً صالحًا مقبولاً عندك ياكريم.

اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

سبحان ربك ربّ العزّة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *